المقالة الرابعة

علم أبى العلاء

تمثل لنا المقالةُ الثانيةُ درسَ أبى العلاء للعلم فى جميع أطوار حياته ، فنرى أنه لم يجلسْ مجلسَ التلميذ من أستاذ إلاّ فى طوْرِ الصّبا ، وأنه لما شبّ أخذَ فى قراءة الكتب ، وزيارةِ المكاتبِ بأنطاكيةَ ؛ فلما بلغ السادسةَ والثلاثين ، رَحلَ إلى بغدادَ فزار مكاتبها ، وجالسَ علماءَها وأدباءَها ، ومن كان فيها من الفقهاء والفلاسفة ، مجالسةَ الند للندّ ، لا مجالسةَ التلميذ للأستاذ . ثم رجعَ إلى المعرة فاشتغل بالتعليم والتأليفِ نيفًا وأربعينَ سنة . فهذه الخلاصة تنتجُ لنا أمرين ، أحدهما : أن العلمَ هو الذى ملكَ حياةَ أبى العلاء ، واستأثرَ بها فى أطوارها الثلاثة . والآخر : أنه اعتمدَ على نفسه فى تحصيلِ علمه ، أكثر مما اعتمدَ على الأساتذةِ والشيوخ ، ويؤيدُ هذا أنّا لا نعرفُ له من الأساتذةِ إلاّ أباهُ ، ومحمد بن سعد فى اللغة ، ويحيى بنَ مسْعر فى الحديث . وأنه لا يحدثُ إذا كتبَ ، ولا يروى عن غيره من الأساتذة الذينَ يمكنُ أن يكونَ قد سمع عنهم . وإنما يكتبُ كتابةَ رجل قد وثق بنفسه ، وربما نقلَ عن الكتب ، كما ترى فى رسالةِ الغفرانِ . وتمثلُ لنا المقالةُ الثالثةُ تأثير هذا الدرسِ الطويل فى آداب أبى العلاء . ومع أن هذا التأثيرَ ظاهرٌ فى مظاهرَ مختلفة ، فليسَ يَعنينا من هذه المظاهر إلاّ اثنان : الأول كثرةُ الاصطلاحاتِ العلمية فى شعره ونثره ، والثانى اصطباغُ أساوبهِ الأدبىّ بالصبغةِ العلمية ، حتى احتاج إلى أن يفسرَ بعضَ ما وقع فى شعره من الألفاظِ على طريقةِ المؤلفين ، كما بينا ذلك عند الكلام على اللزوميات . فهذان المظهران يدلاننا دلالةً واضحةً ، على أن القوةَ العلميةَ كانت شديدةً فى نفسِ أبى العلاء .

فنونه التى أتقنها

غيرَ أن هذا الإجمالَ لا يكفى فى تصويرِ قوته العلمية ، فلا بد لنا من أن ننصَّ على ما درس من الفنونِ ، مستعينينَ على ذلك بما تركَ من الآثارِ الأدبيةِ ، ومن أسماءِ الكتبِ التى ألفها ، وإن كان المؤرخونَ لم يحفلوا بهذا الموضوع ولم يلتفتوا إليه .

العلوم اللغويةُ هى أظهرُ الفنونِ التى درسها أبو العلاء ، فهى التى أمدت شعره ونثره بالغريبِ ، واصطلاحات العلم . وهى التى أنفق أيامَ عزلته فى درسها للناس ، وهى التى تخرّج عليه فيها التلاميذُ النابغون ، وألف فيها الكتبَ الضخمة . وقد كان ظاهرَ النبوغ فى النحوِ ؛ فألف فيه أكثرَ من ستةِ كتب ، وامتلأت باصطلاحاتهِ اللزومياتُ وسقط الزّند ، والرسائلُ ورسالةُ الغفران . وكذلك فى العروضِ فقد ألفَ فيه كتبًا ؛ أخصها جامع الأوزان الذى فصَّلَ فيه ضروبَ الشعر وقوافيه ، ومثل لها بأشعارٍ نظمها ولم يروها عن غيره ، وتبلغ هذه الأشعارُ تسعةَ آلاف بيت كما حدثنا فى ثَبْت كتبه . ومقدمته التى بدأ بها اللزوميات ، واستطراداتُه التى ملأ بها كتبه الأدبيةَ ، تمثل لنا مقدرته فى العروض أحسن تمثيل . فإذا قرأتَ رسالة الغفران ، عرفتَ مقدارحذقه فى استظهار الغريبِ وتحقيقه ، وحفظ ما كان بين العلماء من الاختلافِ فى ألفاظ وردت فى الشعر القديم ، وأنواع من الإعراب والتصريفِ روى عليها هذا الشعر .

ولقد استطردَ فى رسالة الغفرانِ إلى بيتين قالهما النمر بن تولب وهما :

أَلمَّ بصُحبتِى وهم هجوعٌ ... خيالٌ طارقٌ من أم حِصْنِ
لهَا ما تشتهِى عسلاً مُصفّى ... إذا شاءت وحُوارَى بسَمْنِ

فاستطرد منهما إلى قصة كانت بين خلف الأحمر وأصحابه ، ملخصها : أن خلفًا قال لأصحابه : لو أنه وضع أمَّ حفص موضع أمِّ حِصن ما كنتم تقولون فى البيت الثانى ؟ فسكتوا فقال خلف : (وحوارى بِلَمْص) واللمص : الفالوذج .

قال أبو العلاء ويُفرِّع على هذه الحكاية فيقال : لو كان مكان أم حفص أم جزْء وآخره همزة ما كان يقولُ في القافيةِ ؟ فإنه يحتمل أن يقول : وحوارى بكَشْء . من قولهم : كشأت اللحم إذا شويته حتى ييبس . ويقال كشأ الشواء إذا أكله أو يقول : بوزْء . من قولهم : وزأت اللحم إذا شويته . ولو قال حوارى بنَسْء لجاز ، وأحسنُ ما يتأول فيه أن يكون من نسأ الله في أجله أى لها خبز مع طول حياة ، وهذا أحسن من أن يحمل على أن النسء اللبن الكثير الماء . وقد قيل : إن النسء الخمر ، وفسروا بيت عروة بن الوَرْد على الوجهين :

سَقَوني النسْء ثم تكنَّفوني عُداة الله من كذب وزور

ولو حَمل حوارى بنسء على اللبن أو الخمر لجاز لأنها تأكل الحوارى بذلك ، أى لها الحوارى مع الخمر . وقد حدَّثَ مُحدثٌ أنه رأى ملكَ الرومِ ، وهو يغمسِ خبزًا في خمرٍ ويصيب منه . ولو قيل : حوارى بازء . . من قولهم لزأ إذا أكل لما بعُد . ولا يمكن أن يكون رَوِيّ هذا البيت ألفًا ، لأنها لا تكون إلا ساكنةً ، وما قبل الرَّوِي ههنا ساكن ، فلا يجوز ذلك . . . ثم مضى أبو العلاءِ في الاستطرادِ المملِّ حتى أتى على حروفِ المعجم كافةً . وهنالك عاد إلى ما كان أخذ فيه من موضوع الرسالة .

فهذه القصةُ تظهركَ على حظّ أبي العلاءِ من الغريبِ وروايتهِ ، وقدرتهِ على الفقه به ، والتأولِ فيه ، كما أنها تظهرك على مقدارِ ما كان له من الصبرِ الشديدِ على البحثِ والاستقراء . وليس هذا كلُّه إلاّ نتيجة تأثره بذلك القانون الفلسفي الذي أخذ نفسَه به يومَ رجع من بغداد .

أبو العلاء كان — كما قدمنا في المقالة الثالثةِ — شديدَ النقدِ في اللغةِ والعروضِ ، دقيقَ الملاحظةِ . وليس أدلّ على ذلك من هذه المحاوراتِ المسئمة ، التي أجراها بين على بن القارحِ وبين الشعراء من أهل الجنةِ والنارِ . فمن ذلك ما كانَ من المحاورةِ بين على بن القارح هذا وبين لبيد في الجنة ، إذ يقول : أخبرني عن قولك :

ترَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَها أو يرتبطْ بعض النفوسِ حِمامها

هل أردت ببعض معنى كل ؟ فيقول لبيد : « كلا . إنما أردتُ نفسي »

وهذا كما تقولُ للرجل : إذا ذهب مالكَ أعطاك بعضُ الناسِ مالاً ، وأنت تَعني نفسَك فى الحقيقةِ . وظاهرُ الكلام واقعٌ على كل إنسان ، وعلى كل فرقة تكونُ بعضاً للنَّاس . فيقول (لا فتِىْ خصمُهُ مفحماً) : أخبرنى عن قولك : « أو يرتبِط » . هل مقصدك إذا لم أرضها أو لم يرتبط ؟ أو غرضك أترك المنازل أو يرتبط ؟ فيكون يرتبط كالمحمول على قولك : « ترَّاكُ أمكنة » فيقول لبيد : « الوجه الأول أردت » . فيقول (أعظم الله حظه فى الثواب) ؛ فما مغزاك فى قولك :

وصبوح صافيـــة وجذب كرينة بمُوَتَّرٍ تأتـــاله إبهـــامهـــا ؟

فإن الناس يروون هذا البيتَ على وجهين : فمنهم من ينشدُه تأتاله ، يجعله تفتعله من آلَ الشيء يؤوله إذا ساسهُ . ومنهم من ينشد تأتاله من الإتيان . فيقول لبيد : « كلا الوجهين يحتملُه البيتُ » فيقول (أرغم الله حاسده) : « إن أبا على الفارسىّ كان يدعى فى هذا البيت أنه مثل قولهم : استحى يستحى على مذهب الخليل وسيبويه ؛ لأنهما يريان أن قولهم استحيت ، إنما جاء على قولهم استحياىَ كما أن استقمت على استقام » . وهذا مذهبٌ ظريف لأنه يعتقد أن تأتَى مأخوذة من أوى كأنهُ بُنِى منها افتعل فقيل ائْتاى فأعلت الواو كما تُعَل فى قولنا : اعتان من العون ، واقتال من القول . ثم قيل : ائتيت فحذفت الألفُ كما يقال اقتلت . ثم قيل فى المستقبل : يـَأتَى كما قيل يستحى ، فيقول لبيد : معرض لِعَنَنٍ لم يَعْنِهِ . الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلف .

فانظر إلى دقةِ ملاحظته فى التصريفِ ، والاشتقاق . على أن عامة نثرهِ لا يخلو من مثل هذه الدقةِ فى النحو ، والصرفِ ، والاشتقاقِ ، والعروضِ ، والغريبِ . ومن هنا تتبينُ مقدارَ درسهِ وروايتهِ وحظه من التحقيق العلمى أجمع . ولقد بينا فى المقالةِ الثالثةِ أن التحليلَ الدقيقَ لآداب أبى العلاء يرد كثيراً منها إلى آدابِ العرب الجاهليين ، والإسلاميين . فهذا يدلك أيضاً على مقدارِ ما كان يحفظُ من الشعر والنثرِ ، ولا سيما إذا لاحظتَ قوةَ ذاكرته ، وجودةَ حفظهِ . وقد أتقن أبو العلاءِ فنَّ التاريخ كما تحدَّثُنا بذلك آدابه ، وكما حدَّثنا هو فى اللزوميات فى قوله :

ما مرَّ فى هذهِ الدنيـــا بنُو زمن إلاَّ وعنـــدى من أخبارِهمْ طرف

أما العلوم الفلسفية ، فاللزوميات ، ورسالة الغفران يدلاّننا على أنه قد أتقنَها ، وحذقَ فيها علماً وعملاً ، وإن كان لا يضع فيها كتبًا على طريقة المعلمينَ من الفلاسفة . وقد ذكروا أنه روَى شيئًا من السنة ، وقدَّمنا الإشارةَ إلى ذلك فى المقالة الثانية ، وتدلُّ عليه رسالة الغفران لما روى فيها من الحديث . ولا شكَّ فى أنه قد درسَ من الفقهِ مقدارًا غيرَ قليل كما تدلُّ على ذلك الاصطلاحات الفقهيةُ المنتثرةُ فى آدابه ، والمحاجاةُ التى كانت بينهُ وبين أبى الطيب القاضى الشافعى ، حين قَدِم بغدادَ كما قدَّمنا . ومما لا يحتملُ الرَّيبَ أنه قد أتقن القرآن وعلومَه ، كما تشهد بذلك آدابُهُ ، وكتابُهُ الذى سماه تضمينَ الآى ، وإن لم يصلْ إلينا ، فإنه قد حرص فيه على أن يأتىَ بطائفة من المسجع ؛ يختم كل فصل منها بآية مقتبسة من القرآن .

ثقته بنفسه

لا شكَّ فى أن أبا العلاء كان ثِقةً حجةً فى العِلم ، لجوْد حفظهِ وقوةِ فهمهِ ، وأنه لم يُتَّهم بكذب ، ولم يُطعن عليه بتدليس . وقد كان الرجل يرى فى نفسهِ هذا الرأىَ ، فيثقُ بها فيما يحدّثُ ويكتبُ . وقد بينا أنه لم يعتمدْ فى الدرسِ على المشافهةِ ، فقد أثرت هذه الطريقة فى سيرته العلميةِ ، فقرأ عليه التبريزى كتابَ إصلاح المنطقِ لابن السكّيت ، فلما أتمه طالبه بالسَّنَد كما جرت بذلك العادةُ فى عصره . فقال له أبو العلاء : إن كنت تريدُ العلمَ فخذهُ عنى ، ولا تعدُنى ، وإن كنتَ تريد الروايةَ فاطلبها عندَ غيرى . قال القفْطى : فهذا يدلُّ على أن أبا العلاء كان يثقُ بنفسهِ ، ويعتقدُ أنه أدرك اللغةَ ، وإنها فى عصرهِ لأنضج منها فى عصرِ ابن السكّيت .

عنايته بآثاره

أخص ما يلاحَظُ فى الحياةِ العلميةِ لأبى العلاء ، أنه كان شديدَ الحرص على علمه وأدبه ، كثيرَ العنايةِ بآثاره فيهما ، يجمعها ويفسرُها ويناضلُ عنها ، وقدَّمنا تعليلَ ذلك فى المقالةِ الثالثةِ . ونقول الآن : إنك لا تكاد ترى كتابًا ألَّفهُ أبو العلاء ، من غيرِ أن يكونَ قد ألَّفَ له شرحًا أو تفسيرًا ، فقد شرحَ سقْط الزَّند ، وشرحَ اللزوميات بكتابين ، ودافعَ عنها بثالث ، وشرحَ الفصول والغاياتِ بكتابين أيضًا ، وشرحَ الأيكِ والغصونَ ، وشرحَ الرسائلَ بكتاب سماه خادم الرسائل . فهذا يمثل لك مقدارَ حرصه على آثاره ، واحتفاظه بها . ومصدرُ هذا أمران : أحدهما أن الرجلَ كان معترفًا بنفسه ، مكبرًا لها ، فلا يرضى أن تترك آثارها ناقصةً محتاجةً أن يكملها الناسُ . الآخر أنه كان يخشى التأولَ وكثرةَ الكذبِ عليه ، فيعمد إلى كلامه فيجليه ويشرحُ أغراضه فيه . ولكن هذا الغرضَ قد فاته فضاعَ أكثر كتبه ، وعادَ أمرُه من الشكِ والالتباسِ إلى ما كان يخاف .

كتبه

روى ياقوت والقِفطى والصفَدى ، ثبتًا لما ألفَ أبو العلاء من الكتب المنظومةِ والمنثورةِ فى العلوم والآداب . ولكن النذرَ اليسيرَ من هذه الكتب هو الذى بقِىَ لنا . فأما أكثرُها فقال القِفطى والذهبى : إنه بادَ ولم يخرج من المعرَّة، وإنما أتى عليه تخريبُ الصليبيينَ لها ، وتحريقُهم لما فيها . وقد أحصَوا هذه الكتب ، فإذا هى خمسة وخمسون كتابًا فى أكثر من أربعةِ آلاف كراسة ، تتناولُ اللغةَ وفنونَها ، والأدبَ وألوانَه ، والوعظَ وأنواعَه . وكثيرٌ من هذه الكتبِ لم

يكتبه أبو العلاء إلا حين طلبه منه بعضُ الناس ، ومنعه الحياءُ من رده . وقد يُسرَ لأبي العلاء ، رجل يُعرف بالشيخ أبي الحسن على بن عبد الله بن أبي هاشم ، فكتب عنه ما أملى ، من غير أن يقتضي على ذلك أجرًا ، فشكر له ذلك أبو العلاء في أول الثبت الذى وضعه لكتبه . وألف لابنه كتابين . أحدهما سماه المختصر الفتحى ، والآخر سماه عونَ الجمل ، وهو آخر ما أملى من الكتب كما نص على ذلك ياقوت . ولقد نودُّ لو نستطيعُ أن نبحثَ عن هذه الكتب . ونصفها وصفًا مستقصى ، ولكن الدهرَ قد أبى علينا الظفر بهذه الأمنية ، فأضاعَ أكثر هذه الكتب ، ولم يبق منها إلا ما قدمنا وصفه فى المقالة الثالثة .

ذوقه فى تسمية الكتب

ولئن فاتنا أن نصفَ هذه الكتبَ، فلن يفوتنا أن نصفَ ما بقىَ منها ، وهى الأسماء ، فلا شكَّ فى أنها تدلُّ على مزاجٍ معتدل ، وذوق رقيق ، فانظر كيف سمى شرحَه لديوانِ أبى تمام« ذكرى حبيب» فأحسنَ التوريةَ والاختيارَ . وكذلك سمى إصلاحَه لديوان البحترى « عبث الوليد»[١] وقد رأينا هذا الكتاب، فإذا هو إصلاحُ نسخة بعث إليه بها بعضُ الرؤساء، وفيه نقد لألفاظ جاء بها البحترى . ولأبى العلاء فى آخره تأول ظريف فى اسم الكتاب ، فإنه قال : أما العبثُ فظاهرٌ ، وأما الوليد فيجوز أن يُراد به البُحترى نفسه ، لأنه اسمُه . ويجوزُ أن يُراد به الناسخُ، لأنه عبث بالكتاب. وسمى شرحَه لديوان المتنبى (معجز أحمد) توريةً بالقرآن ، وسمى كتابًا آخر (الأيك والغصون) ، وقد زعموا أنه فى مائة جزء ، وتحدثَ من رأى الجزءَ الأولَ بعد المائةِ منه ، ومن رأى بالمكتبةِ النظاميةِ ببغدادَ ثلاثة وستين جزءًا من أجزائه . وعلى الجملة كان أبو العلاء محسنًا فى اختيارِ الأسماء ، كما يدل ما بأيدينا من الكتب على أنه كان متقنًا لتأليف المسميات .

(١) نشر الكتاب الأستاذ محمد عبد الله المدنى سنة ١٩٣٦ فى مطبعة الترقى بدمشق .